﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦﴾ [الشّعراء: 3 - 6]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد أن بيّن النّظم الجليل أنّ الكتاب واضح في نفسه، وأنّه معجزٌ وأنّه من عند الله تعالى، وأنّ الحجّة قائمة به على النّاس؛ أتبعه بتوجيه النّبيّ ﷺ، وحثّه على الكفِّ عن الحزن والأسى على فوات إسلام قومه[1]، فتحوّل من الخطاب الّذي يُبيِّن جدارة القرآن بالاتِّباع، إلى تَأْسِيَة النَّبيِّ ﷺ وتَسْلِيَته بعزوف النّاس عن الإيمان بما ظهر أنّه حقّ، مؤكّدًا أنّ إيمانهم ليس ممّا تعلّقت به مشيئة الله تعالى[2]، ثمّ بيّن "شدّة شكيمتهم وعدم ارعوائِهم عمّا هم عليه من الكُفر والضّلال بغير الآيات المُلجئة، تأكيدًا لصرف رسول الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم"[3]؛ أتبعه ببيان أنّ إعراضهم ترتَّب عليه تكذيبُهم بالوحي والدّعوة، موضِّحًا الإعراض بذِكْر التَّكذيب عقبه[4].

بعد وضوح الحُجّة تسليةٌ للدّاعي عن عزوف النّاس عن دعوته

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰخِعٌ﴾: (بخع) أصلٌ واحدٌ، وهو القَتْلُ وما داناهُ من إذلالٍ وقَهْرٍ[5]، يُقال: بَخَعَ الرّجل نفسه يبخعها، بَخْعًا وبُخوعًا: أهلكها وجَدًّا[6]، وبَخَعَ فلان بالطّاعة وبما عليه من الحقِّ: إذا أقرَّ به وأذعن

(1) المراغي، تفسير المراغيّ: 19/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 150.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 152.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 153.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بخع).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 529.

مع كراهةٍ شديدةٍ[1]، وبَخَعْت لَهُ: تذَلَّلْت وأَطَعت وأَقرَرْت[2]، وقيل: البَخْعُ: أن يبلُغَ بالذَّبح البِخاعَ؛ وهو عِرقٌ مُستبطِنُ القَفا، وذلك أقصَى حَدِّ الذَّبحِ، والمُراد بالبَخْعِ في الآية: قَتْلُ النَّفْسِ وإهلاكُها.

2) ﴿فَظَلَّتْ﴾: (ظلَّ) أصلٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ؛ فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيره، تَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمٌ[3]، وظَلَّ يَفْعَلُ كذا إذا فعَلَهُ نَهارًا؛ وذلكَ أَنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا ليلًا؛ لأَنَّ اللَّيلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[4]، وفِعْلُ (ظَلَّ) مِنْ أَفعالِ الكَونِ أخَواتِ كانَ الَّتي تَدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ[5]؛ وعليه فـ﴿فَظَلَّتْ﴾ في الآية: بمعنى المضارع (تَظلُّ)؛ أيْ: تَدومُ.

3) ﴿خَٰضِعِينَ﴾: (خضع) أصلٌ يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيءِ[6]، والخَضَع: تطامُنٌ في العُنُق، ودُنوٌّ من الرَّأْس إلى الأَرض، وخَضِع خَضَعًا فهو أخضع، والأُنثَى خَضْعاء[7]، والخُضوعُ: الذُّلُّ والاستِخذاءُ، والتَّخاضُعُ: التَّذَلُّلُ والتَّقاصُرُ[8]، وكلُّ ذليلٍ خاضِعٌ[9]، والمُراد بالخضوعِ في الآيةِ: التَّطامُنُ والتَّواضعُ، ويُستعملُ في الانقيادِ مجازًا؛ لأنَّ الانقيادَ مِنْ أسبابِ الخُضوعِ[10].

4) ﴿مُحْدَثٍ﴾: (حدث) أصلٌ يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكُنْ، عَرَضًا كان ذلك أو جوهرًا، وإحداثه: إيجاده[11]، والحديثُ من هذا؛ لأنَّهُ كلامٌ يَحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيءِ[12]، ويُقالُ لكلِّ ما قرُب عهده مُحدَث، فِعلًا كان أو مقالًا[13]، ومُحْدَثاتُ الأمور: ما ابتدعه أهل

(1) الرّاغب، المفردات: (بخع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بخع).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خضع).
(7) ابن سيده، المُحكم: (خضع).
(8) الخليل، العين: (خضع).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خضع).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 96.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حدث).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حدث).
(13) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

الأهواء من الأشياء الّتي كان السَّلف الصّالح على غيرها[1]، والحَدَث في الدّين كُله[2]، والمُراد بالمُحدَث في الآية: الجَديدُ.

5) ﴿مُعْرِضِينَ﴾: (عرض) أَصلُ كلمةِ الإعراضِ من العَرْضِ، وهو الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ، ويَعْرَضُ عَرْضًا؛ أَيْ: ظَهَرَ وبَرَزَ[3]، وقيلَ: أَصلُها من العَرْضِ، وهو: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعترَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافضَ أظهرَ خِلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّه كالواقفِ عَرْضًا في وجهِ الشَّيءِ[4]، والإعراضُ أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفضُ، ويُطلَقُ الإعراضُ بمعنى: الانصرافِ عنِ الشَّيءِ بالقَلْبِ[5]، والمُرادُ بالإعراضِ في الآيةِ: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفضُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تأسف عليهم؛ فلو شاء الله لأخضعهم؛ ولكنّه يُمهل ولا يُهمل

يُخاطب اللّه سبحانه رسولَه ﷺ، بما يُسلّيه عن تكذيبِ المشركينَ له، فقال: لمَ تهلك نفسَك يا محمَّدُ غمًّا وأسَفًا على أهلك وقومك إذ لم يؤمنوا باللّه، ولم يستجيبوا لك؟ إنّهم لا يستأهلون هذا، ولا يستحقّون من أحدٍ أن يحرص عليهم؛ فهم ممَّن لا وزن لهم في ميزان الإنسانيّة، لو شِئْنا لأنزَلْنا على هؤلاءِ الكُفّارِ مُعجزةً ظاهرةً من السَّماءِ تَضطرُّهم إلى الإيمانِ، فينقادوا للحَقِّ قَهرًا، ولكِنْ أراد اللّهُ بحكمته، أن يكونَ إيمانُ كُلِّ أحدٍ اختياريًّا، وإذا أتى الكُفّارَ قُرآنٌ حَديثُ النُّزولِ مِن الرَّحمنِ؛ ليَتذكَّروا ويتَّعِظوا ويتَّبعوه، أعرَضوا عنه، فلم يُؤمِنوا به ولم يتدَبَّروه، فقد كذَّب هؤلاء الكُفّارُ بالقُرآنِ الّذي جاءهم مِن عندِ اللّه، فسيأتيهم عاقِبةُ ما كذَّبوا واستَهزؤوا به[6].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حدث).
(2) عياض، مشارق الأنوار: (حدث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 548، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 89، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 589، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 73.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل الجملة في سياق الآية:

الاستئناف تسليةٌ لصاحب الدّعوة الرّحيم

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فقد سيقت للإجابة عن سؤال يُثار في نفس النّبيّ ﷺ إثر قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، فكأنّ النبي تساءل عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن؛ فاستأنف تسريةً عنه لإزالة أسفه وحزنه، مشيرًا إلى أنّه لا نقص في إنذاره، ولا في كتابه الّذي ينذر به يكون سببًا لوقوفهم عن الإيمان، وإنَّما السّبب في ذلك، توفيق الله تعالى للهداية[1].

دلالة التّعبير بحرف التّرجّي (لعلّ):

النّهي البليغ المؤكّد يُناسِب شدّةَ أسى النّبيّ ﷺ

استعمل النَّظْم الجليل (لعلّ)، في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ للاشفاق؛ أيْ: أشفِقْ على نفسك من أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك[2]، والمُراد من الإشفاق هنا الحثُّ على ترك الأسفِ، وإهلاكِ النّفس على ضلالهم[3]، والنَّهي بهذا الأسلوب أشدّ بلاغة في طلب الكفِّ عن الفعل المتوقّع منه إحداث مضمون الخطاب.

سِرُّ إيثار التَّعبير بالبَخْع مادَّةً وصيغةً:

البَخْعُ تحقُّق الذّبح، ويبيّن كيفيّة القتل

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ البخع دون الذّبح أو القتل؛ وذلك لأنّ البخع هو أقصى حدّ يبلغه الذّابح كما أشرنا[4]، فأُريدَ تقريرُ أنّ الذّبح ناجزٌ مُحقَّق بالغ أقصاه، ولم يُعبّر بالقتل لأنّه عامّ، وقد خصّ نوع القتل بأنّه ذبح يبلغ أقصاه؛ فآثر ذلك تعبيرًا عن شدّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 6 - 7.

ما كان يعانيه النّبيّ ﷺ من التّحسّر على فوات إيمان قومه، وقد جاء التّعبير عنه بصيغة اسم الفاعل، للدّلالة على شدّة الاتّصاف ورسوخ المعنى؛ فهو إشارة إلى قوّة تحقّق ذلك المعنى في النّبيّ.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بلفظ البخع:

ربّما أَوْدَى الحزن والأسى بالنّفس البشريّة إلى الرّدى

استعار النّظم الكريم لفظ البخع لبيان شدّة الهمّ والأسى في قلب النَّبيِّ ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وحقيقة البخع بلوغ الذّبحِ الأعماقَ كما أشرنا[1]، فشبّه حال النّبيّ ﷺ، وهو يتأسّى ويحزن على امتناع قومه من الإيمان بذابحٍ يبلغ بسكّينه أعمق مكان في عنق المذبوح، وذلك تعبيرًا عن شدّة ما كان يعانيه النَّبيُّ ﷺ من التّحسّر على كفر قومه، بحيث إنّه يكاد يقتل نفسه همًّا، والاستعارة تصريحيّة؛ لأنّه صرّح بلفظ المُشبَّه به؛ وهو الباخع.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل من الفعل المنفيّ:

علّة بخع النّفس امتناع قريش عن الإيمان بالحقّ الواضح المبين

عبَّر النّظم الجليل بالمصدر المُؤوَّل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ من (أنْ) والفعل المضارع المَنْفيِّ للدّلالة على علّة البخع المُشفق منه؛ أيْ: باخع نفسك لعدمِ إيمانِهم، أو خيفةَ ألّا يُؤمنوا به[2]؛ فالمصدر المُؤوَّل مفعول لأجله، وذلك بتقدير مضافٍ محذوفٍ وهو خيفة امتناع قريش عن الإيمان بذلك الكتاب المبين؛ والمعنى: لعلّك قاتل نفسك لتركهم الإيمان[3].

سِرُّ العدول عن نفي الإيمان إلى نفي الكون:

استمرارُ المعاندين على الكفر بسبب رسوخه فيهم

عَدَلَ النَّظْم الجليل عن نفي الإيمان إلى نفي الكينونة ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ فقال جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ دون أن يقول: (أن لا يؤمنوا)؛ وذلك لتأكيد كونهم مُستمرّين على

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 298.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 233.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 150.

كفرهم؛ لأنّ فِعلَ الكَوْن يدلّ على الاستمرار، كما أنّه يدلُّ على رسوخ الوصف في المُسنَد إليه، وقد آثر النّظمُ الكريم التّعبير بفعل الكون مضارعًا، للإشارة إلى أنّه ينبغي ألّا يأسف على عدم إيمانهم، ولو استمرّ ذلك في المستقبل[1].

دلالة حذف مُتعلّق الإيمان:

بيان أنّ إطلاق لفظ الإيمان بديلٌ على انتفاء إيمانهم

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ عن الإيمان، بحذف المُتعلِّق في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فجعله مطلقًا؛ وذلك لأنّ المُراد بيان أنّهم لم يؤمنوا بشيء ممّا دعاهم إليه؛ فحذف المتعلّق ليكون عامَّ الدّلالة.

مُتشابه النّظم بين آية الشّعراء (3)، وآية الكهف (6):

استعمال الأسلوب المناسب لدلالة السّياق مفيد في الدّلالة

يشابه نظم الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ النّظمَ المعجز في سورة الكهف حيث قال ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]؛ فجاء النّفي بـ (لم) الّذي ينفي الماضي في سورة الكهف؛ وذلك لأنَّ سورة الكهف مُتأخِّرة في النُّزول عن سورة الشّعراء، فعَدَمُ إيمانهم قد تقرَّر حينئذٍ، وبلغ حدَّ الميؤوس منه؛ فناسب التّعبير عنه في الكهف بنفي الماضي، وفي الشّعراء بالمضارع[2].

دلالة فصل الجملة عمّا قبلها:

الاستئنافُ التّعليليُّ مُفيدٌ في إبراز المعاني

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فهي مساقة لتعليلِ النّهي عن التّحسّر على امتناعهم عن الإيمان؛ وذلك ببيان أنَّ إيمانَهم ليس ممّا تعلَّقتْ به مشيئةُ الله تعالى حتمًا، فلا وجهَ للطَّمعِ فيه والتَّحسُّر عليه، والتَّألّمِ مِن فواتِه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 233.

سرّ إيثار التّعبير بـ ﴿إن﴾ الشّرطيّة دون (إذا):

انتفاء نزول تلك الآيـــة يـوجـب التّعـبير بشرط عدم الوقوع

آثر النّظم الكريم التّعبير بحرف الشّرط ﴿إن﴾ دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، وذلك للإشعار بأنّ انتفاء تلك المشيئة وقع لحكمة يعلمها الله تعالى؛ فإنّ ﴿إن﴾ الشّرطيّة يغلبُ عليها أن تدلَّ على عدم الجزم بوقوع الشّرط؛ فهي تشير إلى أنَّ مضمون الشّرط ليس واقعًا[1]، ولو قال: (إذا نشاء) لدلّ على احتمال وقوع تلك المشيئة؛ لأنّ إرادته تعالى مريدةٌ جَلْبَ القلوب لا إخضاعَ الأعناق، والإيمان البالغ الرُّسوخ، والاعتقاد العميق الدّلالة، يكون آثَرَ في النّفع والفاعليّة والجدوى.

دلالةُ حذف مفعول الفعل: ﴿نَّشَأْ﴾:

حـذفُ المعلوم مـن الـسّـيـاق إيجازٌ في التّعبير

حذف النّظم الجليل المفعولَ به للفعل شاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾؛ وذلك طلبًا للإيجاز؛ فاكتفى بدلالة جواب الشّرط عليه؛ والتّقدير: (إن نشأ تنزيل آية مُلْجِئَةٍ نُنزّلها)[2].

دلالةُ النّفي الضِّمنيّ عن المشيئة:

منـهـجُ الـقـرآنِ الإقـــنـــاعُ لا الإخضاعُ

دلّ أسلوب الشّرط على انتفاء المشيئة ضمنيًّا في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، ويدلّ انتفاء المشيئة أنّ الحكمة اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار، لا عن قهر وإجبار، وهو الأجدى في انتشار الإسلام[3] الّذي ما فتئ يخاطب العقول ببيان النّهج القويم مع مراعاة ملمح الاختيار الّذي راعَتْهُ مشيئةُ الواحد القهّار؛ ولذلك لم يُنزِّل عليهم آيةً كونيّةً مُخْضِعةً؛ بل ترك ذلك لآيِ القرآن الباهرة المُقنِعة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

لـو أُنـزلـتِ الآيـةُ القاهرةُ لـخـضـعـتْ الأعناقُ المُنكِرة

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾؛ ليبيّن أن الجواب - وهو خضوع الأعناق - مُؤكَّد التَّحقُّق عند وقوع فعل الشّرط، كما أنّ هذا التّعليق يدلّ على أنّ الله تعالى قادرٌ على المجيء بالآيات، ولكنّه تعالى يُريد التّكليف لا مجرّد الامتناع عن الشّرّ والعصيان[1].

دلالة التّعبير بالمضارع في السّياق:

القـدرة على تنزيل آيات الله لا تنقطع على المدى

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في فعلَي الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعبيرًا عن دوام تلك المشيئة والقدرة[2]، قال قتادة: معناه: لو شاء الله لأنزل آيةً يَذِلّونَ بها؛ فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية الله بعد ذلك، وقال ابن جريج: معناه لو شاء لأراهم أمرًا من أمره، ودليلًا من جبروته وقهره، لا يعمل أحدٌ بعده بمعصية في دهره[3].

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿نُنَزِّلْ﴾:

الإنزال والتنزيل لـلآيـة يُـخْـضـع أهـل الـكـفـر لا محالة

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿نُنزِلْ﴾ بإسكان النّون وتخفيف الزّاي، وقرأ الباقون: ﴿نُنَزِّلْ﴾ بفتح النّون وتشديد الزّاي[4]، والفرق بين الإنزال والتّنزيل: أنَّ الإنزال: يستعمل في الدَّفعة، والتّنزيل: يستعمل في التّدريج[5]، فلو نزلت الآية مرة واحدة، أو نزلت على مراحل فخضوعهم وإذعانهم وانتهاء تمرّدهم مُؤكَّد الحصول، وفي التشديد مزيد حشد وتأكيد.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.
(2) البقاعي، نَظْمُ الدّرر: 14/ 7.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5277.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 218.
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 68، والراغب، المفردات: (نزل).

دلالةُ حرف الاستعلاء (على) في السّياق:

قيّد النَّظمُ الجليلُ الإنزالَ بحرف الاستعلاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الآية التّي لو شاء إنزالها فإنّها ستكون قاهرةً، فحَرْفُ الاستعلاء هنا دالٌّ على القهر والقَسْر[1].

إرادةُ اللـــه قاهرةٌ، وحكمته في خطاب عباده باهرةٌ

دلالةُ تقييد الإنزال بكونه من السّماء:

قَيَّدَ النّظمُ الجليل إنزالَ الآية بشبه الجملة المبيِّنة مكانَ النّزول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على أنّها ستكون آيةً مُلجِئةً لهم على الإيمان، فلا يكون لديهم احتمال التّكذيب والمعاندة والكفر، فيكون الإيمان فيهم إيمانًا وقع على سبيل القهر بلا تفكير[2]، كما أنَّ فيه ترهيبًا للسّامعين بما عُهِدَ من أنّ ما يأتي من السّماء فيه إبهامٌ وغرابةٌ، وهو أنسب في مقام التّخويف والتّهديد.

آيـاتُ السّمـاء توجب الإيمـانَ الـجـبريَّ لا الطّوعيَّ

بلاغة تقديم الجارّيْن والمجرورَيْن على المفعول به:

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة، من الجارّ والمجرور، على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، وذلك للاهتمام بالمُقدَّم، وهو هنا بيان أنّ المقصود بهذا التّنزيل هم، وأنّ مكانه أهمّ من الآية ذاتها، كما أنّ في تأخير المنزَّل تشويقًا للآذان والأذهان لانتظار ذِكْره، فيكون أَوْقَعَ في السّمع.

أهميّةُ تقديمِ المُنزل عليهم، وإنزال الآية من السّماء

نكتةُ التّعبير بلفظ الآية مُفردةً نكرةً:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الآية في قوله جلّ شأنه: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾؛ للدّلالة على ظهور معالم ذلك التّهديد وبوارق حلوله فيهم، فيكون إهلاكهم ممّا تراه العين كرؤية الآيات والعلامات[3]، وجاء لفظ الآية مُفردًا دون الجمع إشارةً إلى أنّ آيةً

آيـةٌ مـن اللـه واحـدةٌ تكفي لإخـضـاع كـلّ المعاندين

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5336.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 6/ 233 - 234.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.

واحدةً من ذلك القَبيل كافيةٌ في تحقيق المطلوب، وقد جيء بها بصيغة التّنكير للدّلالة على التَّفخيم والتّعظيم؛ فهي آية غاية في الهول بحيث إنّها تُزيل كلَّ شَكٍّ عنهم.

دلالةُ الفاء في لفظ ﴿فَظَلَّتْ﴾:

خضوعُ الأعناق نتيجةٌ حتميّةٌ لنزول الآيات

افتُتح النَّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، بالفاء العاطفة للدَّلالة على تعقيب مضمونها لجملة الشّرط؛ فخضوعُ الأعناق سيَعْقُبُ نزولَ الآية بلا مهلة، كما أنّها تدلّ على معنى السّببيّة؛ فالخضوع مُسبَّبٌ عن النّزول[1].

سِرُّ الماضي ﴿فَظَلَّتْ﴾ دون المضارع (تظلّ):

دوامُ خضوعِ الأعناقِ مُحقَّقٌ مُؤكَّدٌ لا محالة

آثرَ النّظمُ الكريم التّعبير بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ دون الفعل المضارع؛ فلم يَقُلْ: (فتظلّ) تبعًا للفعل المضارع المعطوف عليه (نُنزِّل)؛ وذلك لأنّه أشار إلى تحقُّق أثرها، وكون خضوعهم وانتهاء تمرّدهم مُؤكَّدَ الحصول[2].

بلاغةُ المجاز المُرسل في خضوع الأعناق:

خضوعُ الرِّقابِ أظهرُ علاماتِ الخضوع والذُّلِّ

أسنَدَ النّظمُ الكريم الخضوعَ إلى الأعناق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ على سبيل المجاز المُرسل؛ لأنّ مَنْ يخضع إنَّما هم أصحابها، ولكنّه عبّر باسم الجزء وأراد الكلّ[3]؛ وذلك لأنّ للأعناق مزيّةً في هذا المقام، عن بقيّة الأركان؛ فهي مظهر الخضوع والخنوع، ولأنَّ أوّل أعمال الخضوع أنْ تلوى الأعناق[4]، وذلك أنّ الخضوع لمّا لم يكن إلّا بخضوع الأعناق؛ جاز أن يُخبر عن المضاف إليه كما قال الشّاعر:

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10536.

رَأتْ مَرَّ السّنينَ أخَذْنَ مِنّي *** كما أخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ[1]

فلمّا كانت السِّنون لا تكون إلا بمَرٍّ؛ أخبر عن السِّنين وإن كان أضاف إليها المرور[2].

دلالةُ الكنايةِ عن الذّلّ بخضوع الأعناق:

الخضوعُ لازمٌ للذُّلِّ لا ينفكُّ عنه

كَنَّى النَّظم الجليل عن الذُّلِّ بنسبة الخضوع إلى الأعناق في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، فخضوع الأعناق ليس مُرادًا لذاته؛ بل تعبيرًا عن ذلّ صاحبه والهوان الّذي يَلحقُهُ بعد العِزِّ والكبرياء[3]؛ فقد علم أنَّ الذُّلَّ يُلازمه خضوع الأعناق؛ فأشير بالخضوع إلى الذُّلِّ.

دلالة تقديم ﴿لَهَا﴾ على الخبر:

آيات الله باهرةٌ للألباب تخضع لها الرّقاب

عبّر النّظم الجليل بشِبْه الجملة ﴿لَهَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ للدّلالة على أنَّ هذا الوصف يكون بسببها لا بسببٍ آخر، وأفاد تقديم شبه الجملة على الخبر أنّ خضوعهم بهذا الشّكل مخصوص لهذه الآية لا لغيرها، وللإشارة إلى أنّ الخضوع يكون بالطّبع من غير تأمّل لما أبهتهم وحيَّرهم من عَظَمَة الآية، فكأنَّ الفعل للأعناق لا لهم[4].

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿خَاضِعِينَ﴾، لا (خاضعة):

ذُلُّهم جميعًا ظاهرٌ بخضوعِ أعناقِهم

وصفَ النّظم الجليل الأعناق بصفة جمع المذكر السّالم في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ على طريقة المجاز العقليّ دون أن يقول: (فظلّت أعناقهم لها خاضعة)؛ للدّلالة على أنّ المقصود من ذلك هم الأشخاص[5]، فالذُّلُّ لأهلها وليس للعنق بذاتها، وقد آثر

(1) البيت لجرير الخطفيّ، ديوان جرير، ص: 426، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 335.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 335.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 190.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.

التّعبيرَ عن ذلك بصيغة الجمع؛ ليدلَّ على أنَّهم يكونون في الذُّلِّ في حالة كونهم جميعًا، فلا يُغني جمعُهم عن آحادِهم[1].

دلالةُ عطفِ الجملة على الجملةِ:

بيانُ كُفرهم بالتّنزيل يؤكّد التّسلية للرّسول الجليل

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ على الجملة في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدًا لداعي التّسلية؛ أيْ إنّهم قوم دأبوا على الكفر؛ فلا تأسف لعدم إيمانهم بالآيات البيّنة وما يجيئهم منها من بعد؛ فإنّهم سيُعرِضون عن الذِّكر لرسوخهم في الكفر[2].

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالفعل المضارع:

إذا قستِ القلوبُ المُنكِرة؛ لا تنفعها المواعظ المؤثِّرة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ للدّلالة على تجدّد كفرهم وإعراضهم بتجدّد تنزيل الذّكر الحكيم؛ والمعنى: ما يأتيهم من موعظةٍ من المواعظ القرآنيّة الجليلة، أو نازلة من الآيات البديعة الجميلة ممّا فيه النّفع والرّشاد واتّقاء الضّلال والفساد؛ إلّا جدَّدوا إعراضًا عنه على وجه التّكذيب والاستهزاء، مع الإصرار العاتي على ما يمارسونه من الكفرِ والضَّلالِ؛ وذلك ديدنُ أهلِ الكُفْر من المُلحدين والمُنكِرين، في كلّ عصرٍ وحينٍ[3].

دلالة ﴿مِّن﴾، وتنكير ﴿ذِكْرٍ﴾:

لا يُصرُّ على الإعراض والكفر إلّا جاهلٌ بالذِّكْر

أدخلَ النّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ على النّكرة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾؛ للدّلالة على العموم والاستغراق؛ فـ ﴿مِّن﴾ تُؤكِّد العموم[4]، والتّنكير في حيِّز النَّفي يدلُّ على الاستغراق؛ فأيُّ ذكرٍ يأتيهم فإنَّهم يُلاقونه بالإعراض؛ بلا فهمٍ ولاتدبُّر له.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 97
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 152.

سرُّ التّعبير عن القرآن بلفظ الـ﴿ذِكۡرٍ﴾:

القـرآن تذكيرٌ للغافلين، وموعظةٌ للنّاس أجمعين

آثر النّظم الكريم التّعبير عن القرآن الكريم بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ تعبيرًا عن كونه تذكيرًا ووعظًا للنّاس؛ فهو يُذكِّرهم ويُنبِّههم عن الغفلة؛ فكأنَّ القرآن هو ذاته الذِّكْرُ من جهتِه[1].

دلالةُ وصفِ الذِّكر بأنّه مُحدَثٌ:

تجدُّد الحُجج والبراهين بتتابع نـزول القـرآن المبين

وصفَ النّظمُ الجليل الذِّكر بأنّه محدَث في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ للدّلالة على أنّه جديد على أذهانهم؛ وذلك لأنّه يقع بآية واحدة؛ بل بآية تتلوها آيات[2]، فهو ذِكْرٌ مُتجدِّد يتنزَّل حالًا بعد حالٍ.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في السّياق المُحْكَم:

عَظَمَة الذِّكْر مِن عَظَمَةِ الله تعالى المُنْزِل له

أدخلَ النَّظم الكريم حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ على اسم الله تعالى الرَّحمن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾؛ وهي هنا دلالة على مبتدأ مجيئه، والغرض من ذلك بيان مَنْ صدر عنه التّذكير لتفخيم شأن الذِّكْر[3].

علّة التّعبير بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون (الرّبّ):

بعثُ الرّسالة رحمةٌ ممحّضةٌ من الله الرّحيم بعباده

آثر النّظمُ الكريم التّعبير باسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون غيره من الأسماء؛ للدّلالة على أنّ إتيان الذِّكْر من رحمة الله تعالى، وفي ذلك تغليظ لشناعتهم بالإعراض؛ فإنَّ الإعراضَ عن الوحي هو فعل شنيع، ولكنّ الإعراض عمّا يأتيهم بموجِبِ رحمته تعالى؛ فهو أشنع وأقبح[4].

وقد تجلّى ذلك في تشابه قوله تعالى هنا وما ورد في قوله: ﴿مَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، والشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10537.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]؛ إذْ ذُكر فيها لفظ الرُّبوبيَّة لا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ وذلك لأنّ السّياق في (الشّعراء) جاء تسليةً للنّبيّ ﷺ على إعراض قومه وكفرهم، ففي ذِكْرُ الرّحمن تشنيع حال المعرضين، وقبح ما واجهوا به الكتاب المبين؛ فناسب ذلك المجيء بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون (الرّبّ)[1].

بلاغة التّعبير بالاستثناء المُفرَّغ:

عبّر النّظمُ الجليلُ بأسلوب الاستثناء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾، للدّلالة على الاستثناء من أحوال مُتعدّدة، وجملة: ﴿كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ في محلّ نصبٍ حالٍ؛ أيْ: ما يَأْتيهم من ذِكْرٍ في حالٍ من الأحوالِ إلّا حال كونهم مُعرضين عنه[2]؛ فهم لم يكونوا بحالٍ من الأحوال الأخرى إلّا أسوأ حالٍ وهو الإعراض؛ فدلّ هذا الأسلوب على الإيغال في التّشنيع عليهم، وبيان قبيح فِعْلهم.

من شناعةِ المُعانِدين أنّهم لا يكونون إلّا بحالِ العِنادِ

دلالة التّعبير بفعل ﴿كَانُواْ﴾ دون (أعرضوا):

آثر النّظمُ الكريم التّعبير عن الإعراض بفعل الكَوْنِ دون التّعبير بأسلوب مباشر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إلّا عَنْهُ يُعْرِضونَ)؛ وذلك للإشارة إلى رسوخ الكِبْر فيهم ودوامِه[3]؛ فهو إعراضٌ قديمٌ فيهم راسخٌ منذ كينونتهم، وهم مُستمرّون على الإعراض استمرارًا لا ينفكُّ عنهم.

الإعراضُ راسخٌ في الكافرين رسوخًا لا ينفكّ عنهم

سِرُّ تقديم شبه الجملة ﴿عَنۡهُ﴾:

قدّم النَّظْم الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾؛ فلم يَقُلْ على الأصل: (مُعْرِضينَ عَنْهُ)؛ لأنّ التّقديم يفيد معنى الاختصاص؛ أي إنَّهم لا

فسادُ فكرِ المعاندين في إعراضهم عن الحقّ المبين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.

يُعرضون إلّا عن الحقِّ؛ فقد فسدت نفوسهم، فهم لا يُعرضون عن باطل[1]، كما أنّ التّقديم هنا فيه مراعاةٌ للفاصلة.

سِرُّ التّعبير عن الإعراض بالاسم دون الفعل:

الإعـــراضُ عن الحـقّ صفـةٌ في مَنْ كفر وعقَّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم دون الفعل في بيان الإعراض في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، وذلك لبيان أنّ الإعراض صفةٌ لازمةٌ لهم، راسخة فيهم[2]، فهم يُعرضون عن الدَّعوة، ليس لأنّها لا تصلح لهم؛ بل لأنَّهم قومٌ خَصِمون مُعانِدون.

دلالة (الفاء) في صدر الجملة:

سبب التّكذيب مُـترتِّـبٌ عـلى وقوع الإعراض

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بالفاء، وهي هنا مستعملة للدّلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها؛ فهي الفاء السّببيّة؛ أيْ: بسبب إعراضهم قد كذَّبوا بالحقّ لمّا جاءهم[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالحرفِ (قد):

تكذيبُ الكافرين إثـر الإعـراضِ حقيقةٌ لا ريب فيها

أدخلَ النّظمُ الجليل حرفَ التَّحقيق (قدْ) على الفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ كذبهم قد تحقَّق وتأكَّد؛ فهو يُؤكِّد وقوعَ التَّكذيب إثر الإعراض، وعليه - كما أورد القِنَّوجيّ - فقد كذّبوا بالذّكر الّذي يأتيهم تكذيبًا صريحًا، ولم يكتفوا بمجرَّد الإعراض، ثمَّ انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدُّ منه، وهو التّصريح بالتّكذيب، ثمّ انتقلوا عن التّكذيب إلى ما هو أشدّ منه، وهو الاستهزاء[4].

دلالة الفعل الماضي بصيغة التّفعيل:

تكذيبُ المعرضين واضـــحٌ جـليٌّ وصريحٌ عَتيٌّ

عبّر النّظم الكريم عن تكذيبهم بالفعل الماضي في قوله جلّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5337.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان، 9/ 363.

شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ للدّلالة على تحقُّق التّكذيب وتأكيد وقوعه، وأفاد التّعبير عن ذلك بصيغة التّفعيل، وذلك بتضعيف عين الفعل للدّلالة على قوّة تكذيبهم بأنَّه تكذيبٌ واضحٌ صريحٌ قد وقع بعد الإعراض.

دلالة (الفاء) في جملة: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾:

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بالفاء الدّالّة على التّرتيب والتّعقيب والسّببيّة، لبيان أنّ الوعيد بمجيء الأنباء مُترتِّبٌ ومُتسبِّبٌ عن تكذيبهم النّبيَّ ﷺ؛ أيْ: بسبب تكذيبهم ستأتيهم تلك الأنباء[1].

العذابُ لا يكون إلّا بسبب ما جَنَتْهُ أيدي المُعاندين

دلالةُ التّعبير بحرف الاستقبال:

أدخلَ النّظمُ الجليل حرفَ التّنفيس (السّين) على الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، للدّلالة على تأكيد وقوعه في المستقبل؛ فهو تأكيدٌ لمضمون الجملة وتقريره؛ أيْ: إنّ تلك الأنباء آتيةٌ على وجه القطع[2]؛ والمعنى: أنّهم قد كذَّبوا بالآيات الآنفة الّتي جِئتَهم بها - أيّها النّبيّ - فأنكروها برفضها والصَّدِّ عنها؛ وعليه فإنّ ما سينزل عليك من آيات بعد هذا سوف لا ينفعهم فتيلًا، فلينتظروا البلاء العظيم، وسيعلمون علمًا لا ريب فيه حقيقةَ هذه الآيات، وأنّها الحقُّ من ربِّهم، ولكنْ بعد الفوات[3].

مجيءُ الأنباءِ في المستقبل أمرٌ مُؤكَّد لا يشوبه شَكٌّ

نكتة التّعبير بحرف (السّين) دون (سوف):

آثر النّظم الكريم التّعبير بحرف التّنفيس (السّين)، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون (سوف)، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]، وذلك لأنّه أراد هنا تقليل التّنفيس لبيان قِصَر المدّة؛

بيان أنّ وقت مجيء الأنباء ليس بعيدًا عنهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 73.

لأنّهم لمّا أعرضوا عن النّبيّ ﷺ وكذّبوه واستهزؤوا به، عجّل لهم التّهديد، ليكون مُحتمِلَ الوقوع، فقد يأتي في الدّنيا أو في الآخرة، كما في يوم بدر وغيره من المواقع[1]، فيعلموا أنّ وقوعه في الدّنيا، كائن عمّا قريب، وليس في الفرقان استهزاء بالدّعوة أو النّبيّ ﷺ.

سرُّ إيثار الفعل ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ في السّياق:

إرسال العقوبات دفعةً واحدةً لا تُعجز الله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، للدّلالة على أنّ الإتيان بتلك الأنباء في الوعيد يكون بسهولة ويسر؛ لأنّها صادرة عن قدرة الله تعالى الّتي لا يعجزها شيء، وقد آثر التّعبيرَ بإفراد الفعل دون جمعه فقال: (يأتيهم) دون أن يقول: (تأتيهم)؛ مع أنّ الفاعل جمع تكسير لغير مُذكّر حقيقيّ، والغالب فيه أن يأتي بصيغة التّأنيث الدّالّة على الجمع؛ والعلّةُ في ذلك أنّه جَعَل مجيءَ الأنباء ونزولَها بهم كمجيء شيءٍ واحد تقويةً للمجيء؛ فجعل الأشياء الكثيرة واحدًا في المجيء مبالغةً في قوّة أثرها.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالنَّبأ دون الخبر:

عواقب الإعراض عميقةُ الأثرِ وهائلة الخطرِ

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ (النّبأ) دون (الخبر) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأنّه أراد أنّها أخبارٌ عظيمةٌ جليلة الأثر؛ فأراد التّهويلَ من شأن تلك الأنباء؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ عظيمٌ[2]، فعبَّر به عن العواقب العظيمة والخطيرة المُترتِّبة على كفرهم وتكذيبهم.

دلالةُ جمع لفظ ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾:

من شدّة العقاب كثرةُ أنواعه وتعدُّدها

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأنباء بصيغة الجمع دون الإفراد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ وذلك

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، والبقاعي، نظم الدّرر: 14/ 9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

لأنَّهم قد استهزؤوا بأشياء كثيرة؛ فكانت الأنباء كثيرةً: كالبعث، والعذاب في الدّنيا، ونصر المسلمين عليهم، وفتح مكّة، وعذاب جهنّم[1]، وفي لفظ الأنباء تهويلٌ؛ "لأنّ الأنباء لا تُطلق إلّا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ كبير؛ أيّ: فسيأتيهم لا محالة مِصداقُ ما كانوا يستهزؤون به، إمّا في الدّنيا؛ كيوم بدر وغيره من مواطن الحتوف؛ أو يوم القيامة"[2].

دلالة ﴿مَا﴾ وأثرها في المعنى:

الاستهزاءُ بالدّين من أكبرِ جرائم المُكذِّبين

عبّر النّظم الجليل باسم الموصول ﴿مَا﴾[3] في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لما فيه من دلالةٍ على العموم والإبهام؛ فيشمل كلَّ ما استهزؤوا به من أمر الدّعوة والدّين، كما فيه دلالة على تهويل أمر ما استهزؤوا به، وتلك طبيعة الكَفَرَة المُناوئين ممّا عبّر عنه قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ [يس: 30]، قال المراغيّ: "وقصارى ذلك إنّهم كذّبوا بما جئتَهم به من الحقّ، وإنَّه سيأتيهم لا محالة صِدْقُ ما كانوا يستهزئون به من قبل، بلا تدبُّرٍ ولا تفكير في العاقبة"[4].

دلالةُ التّعبير بفعل الكون دون الاستهزاء:

بيانُ حال مَنْ رسخوا في الاستهزاء، وعاقبة أمرهم فيه

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل الكَوْنِ دون التّعبير عن الاستهزاء مباشرة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ما به يستهزئون)؛ بل ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وذلك للإشارة إلى استمرارهم بالاستهزاء، وأنّه قديم راسخ فيهم على وجه الاستمرار، ولذلك فسيعلمون ما يحيق بهم من العقوبات، في العاجل والآجل، لأنّهم نُبِّهوا على خطر استهزائهم، ولكنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 124.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 54.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 47.

بقوا سادرين في غوايتهم، ولم يعبؤوا بوعيد بالهلاك، ولا تهديد بالعذاب، مع معرفتهم بقدر ما استهزؤوا به، وأنّه حقّ من اللّه، ومع ذلك جحدوا بالآيات واتّخذوها هزوًا.

دلالةُ (الباء) في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

أبانتِ الباءُ أنَّ الاستهزاءَ يطالُ ما يُشير إلى الدّين وشؤونه

عبّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهي هنا للتّعدية[1] - فعدّى فعل الاستهزاء إلى المفعول به؛ فبيّن أنّ الاستهزاء واقع بالضّمير؛ فأوصل الباء أثر الفعل إلى مفعوله، وهو الضّمير العائد إلى الاسم الموصول الدّالِّ على كلِّ ما كفروا به.

سِرُّ تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل:

مَن استهزأ بالآيات والكتب؛ أتاه العذابُ من حيث لم يحتسب

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور في قوله جلّ شأنه: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وكان الأصل أن يُقال: (يَسْتَهْزِئونَ بِهِ)؛ وذلك للدّلالة على اختصاص استهزائهم؛ فكأنّهم لشدّة إمعانهم في الاستهزاء به؛ صاروا قاصرين الاستهزاء به دون سواه[2]؛ فهم لشدَّة انحرافهم لا يستهزئون إلّا بالحقِّ.

سِرُّ إيثارِ الاستهزاءِ دونَ التّكذيبِ:

الاستهزاءُ مظهرٌ من مظاهر التّكذيب لا ينفكُّ عنه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الاستهزاء دون التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ما كانوا به يكذّبون)؛ وذلك لإفادة أنّهم مع تكذيبهم كانوا يستهزئون؛ فيكون قد أخبر عنهم بصفتيْن[3]، والاستهزاء أشدّ وطأً وآلَمُ وقعًا من التّكذيب وما يشبهه من الألفاظ، ولك ألّا تعبأ بهم ولا باستهزائهم؛ فسَيَأْتيهِم عن قريبٍ أَنْباء ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِؤونَ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.

فيظهر حينئذٍ أهو حقٌّ حقيقٌ يستحقّ أن يُنقاد له ويُتَّبع هَدْيُه، أم هو باطل يجب أن يُتّقى ويُهمل زيفه؟![1].

سرّ إيثار ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على (يهزؤون):

الاستهزاءُ من الكافرين رغبةٌ لا عارِضٌ

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الاستهزاء دون الهُزْءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فاستُعمل الفعل ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دون الفعل (يهزؤون)؛ وذلك للإشارة إلى شدّة رغبتهم في ذلك الهزء؛ فهم طالبون له[2]؛ لأنّ التّعبير بصيغة الاستفعال يدلُّ على الطّلب؛ فهم يسعون في هذا الهزء ويطلبونه.

دلالةُ التّعبيرِ عن الاستهزاءِ بالمضارعِ:

استهزاءُ الكافرين يتجدّدُ بتجدُّد الوحيِ ووعيدهم فيه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دون التّعبير باسم الفاعل؛ فلم يَقُلْ: (مستهزئون) كما في ختام الآيات السّابقة، حيث استعمل ألفاظ اسم الفاعل: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ و﴿خَٰضِعِينَ﴾ و﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ وذلك لأنّ الاستهزاء يتجدَّد عند تجدُّد وعيدهم بالعذاب، وأمّا الإعراض فهو وصفٌ مكينٌ فيهم[3].

بلاغةُ ترتيب: (الإعراض، فالتّكذيب، فالاستهزاء):

التّرقّي في المعاني التّوصيفيّة من البيان المُفصِح عن المُراد

ترقّى النّظم الجليل بذِكْر الأفعال الثّلاثة المُعبّرة عن سلوك المشركين؛ فذكر الإعراضَ ثمّ التّكذيب، فالاستهزاء، فبدأ بالأقلّ منها رتبةً وبالأصل، ثمّ انتقل إلى ما يتسبّب منها، فالإعراض عن الشّيء هو عدم الالتفات إليه، ثمّ يصار منه إلى ما هو أشدّ منه؛ وهو التّصريح بالتّكذيب، ثمّ انتقلوا عن التّكذيب إلى ما هو أشدّ منه؛ وهو الاستهزاء[4].

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 124.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 153.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذّبح والبخع:

البَخْعُ أخصُّ من الذَّبح والقتل، وهو بلوغُ منتهى حدِّ الذَّبح

بَخَعَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ: قَتَلَها غيظًا من شدَّة الوَجْد[1]، وبخع الشّاة: بالغ في ذبحها حتّى قطع البِخاع، وهو عرقٌ باطنٌ في الصُّلب وفي القفا، وذلك أقصى حدّ الذّابح[2]؛ فآثر النَّظمُ التّعبيرَ بلفظ البَخْعِ دون الذَّبح أو القتل؛ تعبيرًا عن شدّة ما كان يعانيه النّبيُّ ﷺ من التَّحسُّر على فوات إيمان قومه، فأُريد تقرير أنّ الذّبح ناجزٌ مُحقَّقٌ بالغٌ أقصاه لشدّة الغيظ والتّحسّر؛ أمّا القتل والذّبح؛ فهما عامّان.

الاستهزاء والسّخرية:

الاستهزاءُ يقع بلا سببٍ، والسّخريةُ تقتضي وجودَ فعلٍ سابق

الاستهزاء: وقوعُ الهُزْءِ بلا مُستوجبٍ له؛ فإنّ الإنسان قد يُستهزأ بِهِ من غير أَن يسْبق مِنْهُ فعلٌ يُسبِّب الاستهزاء، أمّا السّخرية فتدلّ على وجود فعلٍ قد سبقَ من المسخور مِنْهُ، كما أنّ فعل الاستهزاء يتعدَّى بالباء الدّالَّة على الإلصاق، كَأَنَّك ألصقتَ بِهِ استهزاءً من غير أَن يدلّ على شَيْء وقع الِاسْتِهْزاء من أَجله، أمّا السّخرية فتتعدّى بحرف الجرّ (من) للدّلالة على السّببيّة، فسخرت مِنْهُ يقتضي أنّ السّخريّة قد وقعت بسببه هو[3]؛ فعبّر في الآية بلفظ الاستهزاء، للدّلالة على أنّ الآيات لم يكن فيها ما يستوجب الهزء والسّخرية.

(1) الخليل، العين: (بخع).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 6 - 7.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية: ص: 254 - 255.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»